مدخل مواجهات نقدية للتجربة الأدبية العربية

بقلم
طراد الكبيسي

- ١ -

بدأ النقد عندالعرب ـ كما بدأ لدى سائر الامم والشعوب ـ بسيطا متذوقا ، قاطعا ، احكامه كالاحلام لا تحتمل النقض .. ومع ان تغيرا كبيرا كان قد طرأ على المجتمع العربي بعد الاسلام وحتى اوائل العصر العباسي الا ان احساس علماء اللغة ـ الذين كانوا يقودون عملية النقد ـ بهذا التغير كان بطيئا ، ذلك ان قضية اللغة والبحث عن المفردة الفصيحة والغريبة والبيت المفرد .. استغرق جل وقتهم فلم يقدروا ان يتجاوزوا « النموذج » الذي قدمه الشاعر الجاهلي ليبصروا « النموذج » الجديد الذي قدمه الشاعر الجديد في المجتمع الجديد والذي بدأت طلائعه اواخر القرن الثاني الهجري حيث احدث انقساما تمثل فيما عرف بالصراع بين القديم والمحدث . ان خروج المجتمع العربي من البداوة الى الحضارة وخروج الادب من الرواية الشفوية الى الكلمة المكتوبة ، كان لا بد ان يحمل معه خصائص معينة ويثير مشكلات فكان الناقد القريب من عصر البداوة غير قادر على رؤية جوهر هذا التحول ومحركاته : وبالتالي عاجزا عن استيعاب هذه المشكلات الا بقدر ما تفرز من ظواهر تؤثر تأثيرا مباشرا في جماليات الاشياء . ولكن المجتمع العربي في سيرورته التطورية ما لبث ان تعرض الى متغيرات كثيرة احدثت فيه تغيرا جذريا في مجالات الاقتصاد والسياسة والفكر ـ وكان نصيب الثقافة ـ العلمية والانسانية كبيرا ولم تكن الروافد البشرية والفكرية التي صبت فيه بمعزل عن هذا التغير والاحداث الثقافي . هذا التحول في الثقافة واتساع حركة المجتمع ساعد كثيرا على بلورة منهج ومصطلح نقدي ، متأثر الى حد بعيد بالتيارات الفكرية والثقافية التي سادت ووجدت لها اصداء واسعة بين فئات وطبقات المجتمع .

فالمعركة التي اثيرت حول ابي تمام والبحتري مثلا لم تكن مجرد اختلاف بين اصحاب مذهب الصنعة، ومذهب الطبع ولكنها فكريا ، تعكس خلافا بين دعاة ادخال الثقافة في الشعر وبين الذين يرون الشعر انفعالا عاطفيا ودفقا عفويا . وهذا يعكس بدوره عقليتين : عقلية الفئة المثقفة المتنورة ، الفئة الجديدة الناهضة في المجتمع والتي اخذت باطراف الثقافة العربية والاجنبية وعقلية الفئة التي ما تزال تترسم المفاهيم القديمة والتي تتوافق كثيرا مع ايديولوجيا الطبقة السائدة في المجتمع وصاحبة المصلحة في استقرار المجتمع وعدم احداث اي تغيير جذري فيه . ولكن النقد نتيجة التطور الشامل في ميدان الثقافة والعلوم استطاع ان يستوعب الكثير من المشكلات التي اثارها تطور المجتمع يعني اننا نرى ان النقد عندما انفعل بطبيعة المشكلات الثقافية القومية ، ونبع من مصادر ألصق بالواقع الاجتماعي والتراث الثقافي القومي أمكن ان يحقق اقترابا اكبر الى التجربة الابداعية . حقا ان الثقافة الانسانية الاخرى تلعب دورها في التحريك الابداعي ولكن كل الثقافات الانسانية لا تستطيع ان توجد شيئا لا تسمح به البيئة الخاصة ، او هي غير قادرة على عطائه . وعلى سبيل المثال ان العرب لو عرفوا او فهموا الجوهر الاصلي للتراجيديا والكوميديا التي تحدث عنها كتاب ارسطو (فن الشعر) هل كان ذلك قادرا وحده ان يخلق هذا الفن الدرامي عندهم ؟ نحن نشك في ذلك ان لم نستبعده اصلا ـ . ان الجاحظ وابن قتيبة والقاضي الجرجاني والآمدي والصولي وابن طباطبا وقدامة ابن جعفر وعبدالقاهر الجرجاني وحازم القرطاجني وغيرهم تلمسوا المشكلة التي واجهوها او ينبغي ان يواجهها النقد . وهي المشكلات التي افرزها المجتمع في مرحلة تطوره الكبير ، وثقافة متطورة تتوازى أفقيا وعموديا مع هذا التطور . وقد اتفقوا جميعا في مسألة تحديد المشكلات كقضية عمود الشعر ، والصراع بين القديم والجديد والسرقات الشعرية ، والمشاكلة بين اللفظ والمعنى والصدق والكذب ـ او الخيال الشعري وعمل القصيدة وعلاقة ذلك بالبيئة والثقافة العامة كالذوق والمثل الاخلاقية والاجتماعية والطبع والصنعة والقدر الذي يسمح او لا يسمح به من المعرفة العامة في الشعر .. الخ، وهذا شيء جوهري دون شك لان تحديد المشكلة يشكل خطوة اولى في الطريق الى وعيها وتعليلها وبالتالي استنباط القيم والانماط الثابتة والمتغيرة من الظاهرة الثقافية ، لفترة او فترات معينة . اقول اتفقوا في تحديد المشكلات ولكنهم اختلفوا قليلا او

كثيرا في وعي او درجة وعي طبيعة المشكلة وارتباطها بواقع الحياة المتحرك والضاج بمختلف التيارات الاجتماعية والفلسفية والفنية .. الخ . ولكن النقد العربي القديم مع ذلك استطاع ان يحقق انجازات مهمة وكبيرة في مجالي النقد النظري والنقد التطبيقي فقد استطاع مثلا ان يوجد مصطلحه النقدي الكافي لانه كان على درجة من النضج والحيوية لدرجة اننا لم نجد ناقدا ـ تطبيقيا خاصة ـ حاول استبدال المصطلح النقدي العربي بغيره على الرغم من شهرة كتابي أرسطو (فن الشعر والخطابة) (١) اللهم الا استفادات قليلة خاصة لدى النقاد الذين كانوا « نظريين » اكثر منهم تطبيقيين ـ كابن سينا والفارابي وحازم القرطاجني بوجه خاص . حيث نجد مصطلحات المحاكاة والتخييل والاقاويل الشعرية . لماذا ؟ لان الناقد العربي صاغ مصطلحاته اساسا من الحياة العربية نفسها سواء ما دار حول عروض الشعر او صناعته اللفظية ،ومن اسماء الصناعات واوصاف بعض الحيوانات (الخيل والابل) كما اخذ بعضها من مصطلحات الفلسفة وعلم الكلام . وكانت مناهج على قدر من النضج والاستواء غالبا فليس مهما بنظرنا اليوم ، الصواب او الخطأ في الاحكام والتطبيقات بقدر ما المهم هو نضج المنهج ووضوحه . فالنقد على رأي الدكتور احسان عباس لا يقاس دائما بمقياس الصحة او الملاءمة للتطبيق وانما يقاس في منهج صاحبه . فمنهج كالذي وضعه ابن طباطبا او قدامة قد يكون مؤسسا على الخطأ في تقييم الشعر حسب نظرتنا اليوم ولكنه جدير بالتقدير لانه يرسم ابعاد موقف فكري غير مختل (٢) .

ـ ٢ ـ

بين سقوط الحضارة العربية في بغداد على يد الغزاة الاجانب ابتداء من الغزو المغولي وانتهاء بالاحتلال العثماني وبين النهضة الحديثة .. حصل انقطاع في خط التتابع الحضاري كان من نتيجته فيما يخص الموضوع الذي نحن فيه :

١ ـ انقطاع الاتصال بالتراث الحضاري العربي الابداعي .

٢ ـ التوجه الى الثقافة الاجنبية ، ومنها اتجاهات النقد الادبي الغربي، ومدارسها الادبية وكان الاتصال بهذه المدارس والاتجاهات النقدية في افضل احواله متأخرا .. اي بعد ان تكون تلك الاتجاهات قد هدأت في موطنها، او (تهامشت) مع الحياة ، ويكاد اثرها يكون مضمحلا .. فالسريالية مثلا كحركة ادبية وتيار في الوعي ، لم تصل الاديب العربي الا بعد ما يقارب النصف قرن من عمرها،اي في مرحلة الشيخوخة او ما بعد الشيخوخة ، والرومانتيكية بعد قرن تقريبا .

وهكذا يمكن القول عن اتجاهات النقد المختلفة ،لا تصلنا الا متأخرة وبعد ان تكون قد سكنت ، او اضحت ضعيفة التأثير في توجيه الادب وحركة النفس البشرية(٣) ومما لا شك فيه ان تفاعل المثقف والناقد مع ايما حركة وهي في قوتها ، سيكون مختلفا جدا عن تعامله معها وهي تدب على العصا ! او عندما تكون قد غدت جثة باردة !

وقد كان بأمكان التراث الحضاري العربي الابداعي ، لو بقي الاتصال به مستمرا ، ان يوفر علينا الكثير من الجهد واللهاث وراء هذا المصطلح او تلك النظرية وكان بامكانه ان يكفينا ايضا معاناة ما قام ويقوم به حتى اليوم، الاكاديميون المولعون بنبش مقابر التاريخ وقماماته بحثا عن كل رث وهزيل يتكسبون به الحياة والترقيات والشهرة الزائفة .

لا يعني هذا اننا سوف نكتفي ذاتيا ، ونعتزل معركة الثقافة وصراع الايديولوجيات التي تملأ الساحة العالمية وتستغني عن الخبرة الانسانية .. فأي انسان يمكن ان يفكر بهذا ويستطيع ان يثبت انه موجود في حاضر الوجود البشري .؟

ولكننا من جهة اخرى لا نرغب ان نظل (اشعبيين) نلتهم ما يقدمه لنا الاخرون ، وننتظر ما يأتي .. فنفقد بذلك احساسنا بلذة العمل ، وقد نفقد حسنا بكوننا موجودين في عالم لا يحترم الا العمل والابداع .

ـ ٣ ـ

اين موقع النقد الادبي العربي المعاصر من النقد في العالم ؟ ان النقد الادبي العربي المعاصر ، موجود دون شك حتى وان كان في معظمه هامشيا وغير فاعل في حياتنا الثقافية ولكنه مورع فيما نرى بين اتجاهين رئيسين ـ ما بينهما استثناء نادر وهما :

١ ـ اتجاه او منهج اكاديمي بمعناه الذميم الميت .

٢ ـ اتجاه يستعير القدرة على التحليل او الكشف والتفسير من مناهج غربية غريبة على طبيعة تجربتنا الادبية ، واذا شبهنا المنهجي الاكاديمي برجل الاسكيمو الذي يتمسك بتقاليده البالية ظنا منه انه بدونها سوف ينهار العالم ويخسر كل شيء (٤) فان البعض من نقادنا

---

(١) خذ مثلا نفي ابن الاثير تأثير ارسطو فيه : (.. واذا وقفت على رسائلي ومكاتباتي ـ وهي عدة مجلدات ـ علمت حينئذ ان صاحب هذا العلم من النظم والنثر بنجوة من ذلك كله وانه لا يحتاج اليه ابدا ..)

(٢) تاريخ النقد الادبي عند العرب ص ١٠ .

(٣) طراد الكبيسي : من مشكلات النقد العربي الادبي المعاصر ، مجلة الاقلام العدد ١٠ ، تموز ١٩٧٧ .

(٤) د. الياس فرح : التربية والسياسة

المعاصرين وهو يستعير مناهج حديثة من الاداب الاجنبية (ليُفصّل) على قدّها تجربتنا الادبية يشبه بروتوكس صاحب السرير الذي يفضّل جرم ضيفه على قدر حجم سريره يقص منه الزائد اذا كان طويلا ويمطه اذا كان قصيرا .

ان الكثيرين من اخواننا النقاد ـ يغالون اذ يفصلون ضحاياهم من الكتاب على قدر حجم المناهج التي يستعيرونها فكل فكرتين متقابلتين تقع عندهم داخل المنهج الجدلي وكل رواية فيها شيء من الجنس ، تخضع هي او كاتبها لمنهج التحليل النفسي الفرويدي وكل دعوة اجتماعية او بارقة فكرية يجوز عليها المنهج الايديولوجي .. وهكذا (تتغرّب) كل الاشياء كما (تتغرّب) كثير من التجارب الادبية ، لانها لا حظ لها من العربية الا اللغة .. واللغة وحدها لا تصنع ادبا عربيا .

وثمة حقيقة اخرى ينبغي الاعتراف بها وهي ان نقدنا العربي المعاصر ثقة القارىء به ضعيفة ، وعندما تضعف الثقة بالنقد يؤثر ذلك كثيرا في جدواه ، وقدرته على التأثير في الثقافة وتوجيه مسارها .

وتتوزع ضعف الثقة وقلة الفاعلية ، جملة اسباب (لا نرى ضرورة التفصيل فيها) بعضها يعود الى القارىء ، وبعضها تاريخي (تاريخ النقد نفسه) وبعضها يعود الى النقد نفسه .

فمنذ القديم ، وعلى مر العصور كانت العلاقة بين الناقد والكاتب ، والناقد والقارىء ، علاقة متوترة ، مشبوبة بالحذر ، والنقد منهم بانه يتطفل على الادب وانه ليس من الاعمال الابداعية او حتى الادبية .

ويهمنا هنا ما يتعلق بالنقد نفسه من اسباب ، والتي هي في جملتها تتركز في العملية النقدية واشتراطاتها . كوضوح المصطلح ووضوح المنهج والدراية الواسعة المعمقة بالادب القومي والانساني والتيارات التي تجري فيه .. والرؤية النقدية الشمولية القادرة على التحليل والاضاءة .. الخ .. فاذا ما افتقر النقد الى هذه المقومات وغيرها ـ وهي حال معظم نقادنا العرب المعاصر ـ فقد مبرراته وفرض على نفسه العزلة عن العمل الادبي وعن القارىء معا وكف عن ان يكون ادبا (٥) .

ـ ٤ ـ

كيف السبيل الى رؤية نقدية عربية تعكس القيم الجوهرية للحياة العربية المادية والثقافية المعاصرة ؟

نحن لن نقول هات نقدا .. اعطيك ادبا ـ كما قال البعض ـ ولربما العكس هو الصحيح ، ولكن نقدا جادا ـ منهجيا وعلميا ـ لا شك قادر على ان يكشف الصواب والخلل في الحياة الثقافية وان يلعب دورا مؤثرا في توجيه وترسيخ القيم الاساسية الاصيلة ودحر الافتراءات ومظاهر الخداع التي تملأ الجو الثقافي .. من «عبقريات» زائفة الى « مواقف » بائسة ، تسلخ في التحليل الاخير ، المواطن عن وطنيته والمثقف عن ثقافته ، والانسان عن انسانيته (وما موقف بعض الادباء المصريين من رحلة السادات الخيانية الى الارض المحتلة الا مثلا صارخا على هذا) .

في البدء لا بد ان يحدد النقد العربي المعاصر ، موقفه من المنهج والمصطلح النقدي الاجنبي ، ومن المصطلح والمنهج النقدي العربي القديم .. ذلك اننا في حاضرنا الراهن لا نستطيع ان ننعزل عن العالم وتجربة الكتابة الحديثة ، كما لا نستطيع ان نهمل تراثنا النقدي ونبقي على خط التتابع منبتا .. لان هذا التراث كغيره من فنون العلم والمعرفة يشكل بالنسبة لنا ، خبرة نفسية وفلسفة اجتماعية وجمالية .

والناقد المبدع مثل الاديب المبدع هو القادر اليوم . على ان يعيد صياغة هذا التراث على ضوء المعرفة العلمية الجديدة ، مستخلصا اهم ما فيه من قيم منهجية وفنية وثقافية ، فبين الماضي والحاضر تفاعل لا مجال لنكرانه . ولا نعني بالماضي ، الماضي الميت ، بل ما هو مستمر في الحياة فالحاضر يكيف الماضي باستمرار مثلما ان الماضي يكيف الحاضر (*) فيوسع كل منهما مداركنا ، وينشط قوانا التخيلية .

فالمنهج البلاغي ـ اللغوي مثلا ، لا يكشف لنا عن امكانيات جمالية ـ شكلية ، ولا يفسر جانبا من سر سحر الكلام الحلال وحسب ! بل يكاد في وسط « العُجمة » السائدة في وسطنا الادبي يكون ضرورة لا بد منها ، ولكن ليست البلاغة بمعناها الاصطلاحي القديم ، بل البلاغة التي يطرحها الادب الحديث الذي تتمثل فيه العلاقات المتشابكة ، المادية والفكرية للمجتمع البشري المعاصر .

ومنهج الموازنة اذا ما لقّح بمناهج الآداب المقارنة فانه يتيح لنا الكشف عن الموهبة المبدعة واثر البيئة ومجمل الظروف الاجتماعية والذاتية المحيطة بشخص المبدع وعمله الابداعي .. كما يساعد دون شك على مزيد من المعرفة عن الاسس الفنية للعملية الابداعية .

وهكذا يمكن القول عن المنهج الايديولوجي ، بجواز المعنى ، او النقد الذي يرى الافضلية للمعنى ، بامكانه ان يعمق لدينا النظرة في ربط الجمال بمعناه ويحل جانبا من مشكلة مشاكلة اللفظ لمعناه .

ان الحس التاريخي بالتراث لا يجعلنا نحس بمضيّ

(٥) مقالنا (من مشكلات النقد الادبي العربي المعاصر) المصدر نفسه ص ٩ .

(*) مانيسن : الاديب وصناعته ص ٢٠١ .

ما مضى ، وحياة ما هو قابل للحياة ، بل يجعلنا في الوقت نفسه نحس ان ثقافتنا العربية منذ اقدم عصورها حتى اليوم حاضرة في تجربتنا المعاصرة ، واننا في موضع التحدي ازاء الماضي بابداعاته ، وازاء الحاضر بانجازاته المطردة في كل مجال ، وحل مشكلاته .

ان اعادة قراءة هذا التراث النقدي ، سوف يساعد كثيرا في التخلص من « فوضى » المصطلح الذي هو الصفة الغالبة على ادبنا العربي المعاصر سواء كانت هذه « الفوضى » ناتجة عن استخدام المصطلح الغربي الحديث ، استخداما معارا ، او استخدام المصطلح العربي القديم استخداما غير ديناميكي .

نحن نقر ببعد الشقة بين التجربة الابداعية العربية المعاصرة وبين المصطلح القديم الذي ينتمي الى تجربة، ووعي بالتجربة القديمة ، ولكننا نرى ايضا ان الشقة واسعة ايضا بين المصطلح الغربي وتجربة الكاتب العربي . . وهذا يعني ان استخدام اي من المصطلحين بمحتواه الاصلي لن يكون قادرا على التعبير عن محتوى تجربة الكاتب العربي المعاصر ، والحياة الثقافية العربية ، بمفاهيمها واهدافها وطبيعتها الا بحدود ضيقة جدا .

اذن لا بد من استنباط مصطلح جديد يعبر عن هذه الحياة والتجربة المعاصرة ، سواء جاء هذا الاستنباط عن طريق التلاقح بين المصطلحين العربي والغربي ، اوبافراغ المصطلح (الغربي او العربي القديم) من محتواه وملئه بمحتوى جديد ، كما حصل بالنسبة لمصطلح « الشعر الحر » الغربي ومصطلح التدوير العربي او باحداث المصطلح على ضوء التجربة المعاصرة احداثا .

ان تحليل التجربة الادبية يستدعي وعي المعنى ، ومعنى المعنى ايضا ، وهذا لا يتطلب التأكيد على دقة استخدام اللغة وتراكيبها من جانب الكاتب بل يستدعي كذلك ، تمعن الناقد في استخدام ادواته الكاشفة ، ان حالة الانفصام التي نشهدها بين القارىء والكاتب ، ليس سببها الكاتب وحده ، بل الناقد الذي يستهين بمسؤوليته تجاه النص والقارىء معا ـ اي المجتمع . هذه المسؤولية التي هي جمالية واجتماعية باعتبار ان النص موجه الى المجتمع ويحفل بضروب الصراع وبضروب التعبير الجمالي .

فما هي مسؤولية الناقد ازاء النص وازاء المجتمع ؟

سؤال قد يحتاج الى وقفة طويلة، ذلك ان مهمات النقد تعددت وتعقدت بتعدد المطالب البشرية وتعقدها ، واختلاف اساليب التفكير ومناهجه ، وطبيعة الحضارة المعاصرة ، والنقد باعتباره عملا ادبيا ، وهذه صفة قلما التفت اليها ، له مهمات بعيدة وقريبة ، فعلى المدى البعيد يلعب النقد دورا مهما في توجيه مسار الثقافة لاداء مهماتها الوطنية والانسانية وتكوين الذوق العام الجديد. ولكن هذه المهمة البعيدة ، انما تتشكل في جزء كبير منها. من خلال اداء النقد لمهماته القريبة . اي من خلال المتابعة والرصد وتحليل الظواهر الثقافية ، لتأصيل ما هو جوهري وانساني شمولي ، وتعرية ما هو عارض وجزئي ولا انساني .

واذا اعتبرنا الثقافة العربية ـ كما هي واقعيا ـ تتشكل وحدة عضوية متكاملة وان مثقفي العربية تجمع بينهم كل الروابط التي يمكن ان تجمع بين مجموعة من الافراد ، لتشكل امة واحدة وتوحدهم قضية واحدة ، ادركنا خطورة هذه الثقافة عندما لا ترتبط في سياقها التاريخي بمصير هذه الامة ككل ، ولا تعبر عن طموحها وامالها ومستقبلها الا برابط واحد هو اللغة ! ومهمات النقد هنا تكون كبيرة وخطيرة . وتأتي في مقدمتها ، اعادة بعث الشعور بالوحدة ، وكشف مواطن الفرقة ومصادر « الاغتراب » والنضال ضد كل الكوابح المضادة لحرية الثقافة وحرية الابداع . ان الفنان الحقيقي يبحث دائما عن الوشائج التي تشده الى ثقافة امته ، والى ابناء شعبه والانسانية جمعاء. بينما فنانو المرتبات الاخر يحصرون همهم دائما في توحيد الفروقات التافهة والجزئية التي تميزهم شخصيا عن الاخرين (٦) .

وفي ضوء اتجاهات النقد المعاصر يمكن ان تحدد مهمة النقد المتواضع والحيوي في جوانب ثلاثة :

اولا ـ انه يساعدنا على تحديد ما نقرأ ، وما ينبغي اعادة قراءته ، ذلك ان حجم الادب اليوم هائل ، وليس بالمستطاع متابعة كل ما يصدر . فلا بد للانسان ان يختار . ولكن ليس معنى هذا ان يلعب النقد دورا مصيريا بالنسبة للادب ، فيختار لبضعة مؤلفين ، او بضعة مؤلفات منتخبة على انها الوحيدة التي تستأهل القراءة. ويحكم على الباقي بالموت والاهمال . (فعلامة النقد الجيد انه يفتح من الكتب اكثر مما يغلق) ولكن النقد المعضد بالتراث القومي والانساني بدخلنا في (محاورة مع كل ما هو حي) سواء اكان ذلك مع الادب الجديد او مع التراث الذي تستند اليه عبقرية الحاضر . .

ثانيا ـ يمكن للنقد أن يجعل الصلة بين الاشياء قائمة . ففي الوقت الذي تقوم فيه الخلافات الايديولوجية والسياسية ، كحواجز تؤثر على سرعة توصيل الكثير من المنجزات العلمية والتكنولوجية ، الستراتيجية خاصة، فان النقد بمقدوره أن يجعل خطوط الاتصال مفتوحة بين الشعوب وثقافتها . ذلك انه ليس بمقدور احد ان يحتكر انجازات البشرية الفنية والفكرية ، لان الحضور الفعلي لهذه الانجازات لن تكون الا بواسطة الناس . فالمنجز الفني والادبي يتوجه من (معمله) الفنان أو الكاتب الى السوق (القراء) مباشرة ، وحضوره مرهون بهذا التوجه والتواجد . ولن يكون بغير ذلك .

ان الآداب لا يمكن أن تعيش في عزلة ، والناقد الذي

---

(٦) ت.س. اليوت : (مقالات في النقد) ص ٢٢ .

يقول : « ان الانسان يمكن أن يكتفي بمعرفة لغة واحدة . وان التراث القومي في الشعر أو في الرواية هو التراث الصحيح والمتفوق » انما يغلق ابوابا ينبغي ان تفتح . ويضيق آفاقا ذهنية ينبغي أن تنفتح على انجازات اكثر اتساعا واتزانا .

ثالثا ـ أما الوظيفة الثالثة للنقد ، وقد تكون هي الاهم ، فهي تتصل بالحكم على الادب المعاصر . وثمة فرق بين الادب المعاصر والادب الذي صدر حديثا ، فما كل ما يصدر حديثا يمثل المعاصرة حقا ، رغم انه يستحوذ على اهتمام الصحافة الدورية وعارضي الكتب ، ولكن الادب المعاصر الذي ينبغي ان يحوز اهتمام الناقد ، هو الذي ينهض بمتطلبات عصره جوهرا لا عرضا والذي اضاف الى رصيد الثقافة الانسانية والقومية ، شيئا جديدا من المعرفة الادراكية أو الاسلوبية (٧) .

يعني ليس يكفي أن يقوم الناقد باعطاء حكم قيمي على آثار بعينها ، وانما ، وهذا من مهامه الاساسية ، هو أن ينصرف الى أن يبين كيف يؤثر الجو الحضاري الثقافي الذي يسود فترة ما في انتاج الادب واستساغته (٨) . وكيف يؤثر الادب في الجو نفسه ، فيبرز ويبلور الكثير من حقائقه ومظاهره . هذا ، ويبدو ان النقد الادبي اليوم يتجه الى العمل الادبي نفسه ، والابتعاد قدر الامكان عن المنهج « البيوغرافي » والاكاديمي البحت (لا تثق بالقاص وثق بالقصة) (٩) .

يعني أن نجعل العمل الادبي هو المادة الاساسية لنظرية الادب ، وليست هذه المادة هي حياة المؤلف الشخصية أو النفسية ، ولا البيئة الاجتماعية ولا رد الفعل المؤثر من جانب القارىء ، كما يقول ويليك . فمن المستحيل أن يتحقق التحليل الدقيق أو القراءة الفاحصة بدون قوة الملاحظة ، وبدون الحساسية الدقيقة تجاه الجزئيات ، وبدون الاكتراث والمتعة . وليس ثمة تناقض بين النظرية الادبية والتجربة كما يدعي اعداء النظرية» (١٠)

يقول داماسو آلونسو : « وما يعنيني اكثر من غيره هو ذلك النوع الذي يقف فيه الملاحظ أمام العمل الادبي وهو مملوء بالرغبة في أن ينفذ الى أعماق العمل ذاته والى جوهره بوصفه خلقا حيا وفريدا . ذلك هو منهجي » (١١) . ليس معنى هذا أن يهمل النقد الظروف المحيطة بالعمل الادبي ، بيئية أو شخصية (مما يتصل بمكونات شخصية الكاتب نفسه) ، ولكن اتجاه النقد في كثير من المناهج ، الى خارج العمل الادبي نفسه ، وخاصة في النقد الصحفي وكثير من النقد الايديولوجي والتحليلي ، جعل النقاد يوجهون الانظار الى العمل الادبي نفسه . فقيمة العمل العظيمة أو التدميرية تكمن فيه أولا ، فالقصيدة العظيمة والرواية الممتازة تفرضان نفسيهما علينا . انهما تقتحمان وعينا ، وتحتلان فيه أعظم موضع ، وتنفذان الى خيالنا ورغائبنا ومطامحنا وأخفى أحلامنا بسلطان غريب له وقع الصدمة . والذين يأمرون بحرق الكتب يدركون أي تأثير لها » (١٢) .

أما الظروف المحيطة بانتاج العمل والمؤثرة في شخص الكاتب . فانها عوامل مساعدة لاضاءة العمل الادبي ، وليست مما ينبغي أن يتشبث بها الناقد ، ويهمل مهماته الاساسية التي هي (مهمات أدبية عامة) قبل كل شيء .

فالناقد الذي لا يكن اديبا انما هو ليس بناقد في الواقع (١٣) وليس المقصود (بالاديب) أن يكون شاعرا أو قاصا أو روائيا ، حتى يحق له القيام بالنقد . ولكن المقصود بالاديب هنا ، التوجه الادبي في النقد ، التوجه الى داخل العمل الادبي ، وليس التشبث بما هو خارجه . فعندما أقول ـ يقول بورسوف ـ « النقد هو أدب أيضا فانني أعتقد ان الناقد ، وهو يضع الحلول للمهمات التخصصية التي يتميز بها الادب جزئيا ، ملزم بالتفكير ككاتب ايضا . التفكير بطريقة مغايرة ، وبأسلوب في الكتابة مغاير للنزعة الاكاديمية والصحفية في النقد (١٤) .

ولكن كيف يكون النقد عملا ادبيا ؟

يقول جورج ستينير ، انه يكون ذلك عن (طريق الاسلوب) . ولكن ستينير في الوقت نفسه يكاد يقصر هذه الحالة ، على حالة واحدة ، وهي عندما يكون الكاتب ناقدا لعمله نفسه ، أو حاديا لنظرية شعرية (١٥) .

اما (غراهام هيو) فيرى ان النوع الوحيد من النقد الذي ستكون له قيمة اكثر من اداء خدمة مؤقتة هو ذلك النوع الذي يصبح هو نفسه ادبا . وهو ذلك النوع الذي تستمر قراءته لا لحججه أو افكاره ، ولكن لانه نبع مستقل للمتعة الادبية . ان هذا كلام صعب على من يريد أن يجتهد وأن يتعلم ، ولكن أضعف شعر غنائي يمتلك فرصة للبقاء اكبر مما تملكه معظم الاعمال النقدية الجادة (١٦) ، وهذه حقيقة لا مجال لنكرانها . فكل انسان يجيد قراءة شعر المتنبي أو (بطل هذا الزمان) مثلا ، لا بد أن يشعر أي نمط من الناس كأن هو المتنبي أو ليرمنتوف . ولكن قراءة الاعمال الابداعية هذه شيء ، والبحث عن شيء ما فيها ، من خلال القراءة ، شيء آخر (١٧) .

---

(٧) جورج ستينير : حاضر النقد الادبي ، ص ٣٧ ـ ٣٩ .
(٨) ديفد دينش ـ مناهج النقد الادبي ـ ص ٥٧٥ .
(٩) رتشارد هوجارت ـ حاضر النقد الادبي ـ ص ٤٣ .
(١٠) رينيه ويليك ـ المصدر نفسه ص ٥ .
(١١) حاضر النقد الادبي ـ ص ١٤٩
(١٢) جورج ستينير ـ المصدر السابق ص ٤٠ .
(١٣ و١٤) بورسوف (النقد كعمل ادبي)، مجلة افاق عربية ـ ع(١٢) آب ١٩٧٧ ـ ص ١١١ ـ ١١٧ .
(١٥) حاضر النقد الادبي ـ ص ٣١ .
(١٦) حاضر النقد الادبي ـ ص ٩٠ .
(١٧) بوريس بورسوف ـ المصدر نفسه ـ ص ١١٥ .

فهل يمكن قراءة « النقد » كما تقرأ كتب الادب ؟

لا اظن ان احدا يستطيع أن يقرأ « فن الشعر » لارسطو ، كما يقرأ هوميروس وسوفوكليس ويوربيدس ، او يقرأ « الوساطة » كما يقرأ المتنبي .

لماذا ؟

لان الفن العظيم دائما أعظم من تفاسيره . وأعظم النقاد لم يستطيعوا أن يحرزوا كل ما فيه من معنى وقيمة (١٨) .

لماذا ؟

لان غالبيتهم ، يتبع طريقة واحدة ، أو يسلك منحى واحدا « وليس هناك منحى واحد سلكه الناقد الى الآثار الادبية ، أفضى الى كل الحقائق الهامة فيه » وكل ما فعله النقد ـ في تاريخه الطويل ـ هو انه مكن القارىء من بلوغ التجربة أو الاقتراب منها . فما هو الحل اذن ؟

فيما يخص النقد الادبي المعاصر ، لا بد من الاشارة أولا الى ان العملية النقدية ، عملية تشرك وتهم أطرافا ثلاثة : الناقد ، والعمل الادبي (ويشرك بعضهم الكاتب مع العمل) ، ثم القارىء . وكل واحد من هؤلاء له دوره في العملية النقدية ، والثقافية العامة .

فليس النقد في راينا عملا فرديا ، رغم ان من يكتبه هو فرد (أرسطو ، لونجينوس ، بورا ، ماكليش ، رينيه ، ويليك ... الخ) . فكما يقال ان الرواية هي نتاج عصر والملحمة كذلك ، والعبقرية والبطولة لانها المحصلة النهائية لمجموع المؤثرات الاجتماعية والابداعية لعصر ما او حضارة ما وامة ما ، كذلك يمكن ان يقال عن النقد، انه يسهم فيه الناقد والكاتب والقارىء أي الجماعة، لا كظاهرة ثقافية لها أسسها الفكرية والجمالية ، ولكن « الجماعة » تسهم ايضا في توجيه وتقويم اتجاهه ، ولكن شريطة أن يكون هناك مجتمع « مثقف » يتغلب على بطش الاكاديمية ، وثرثرة الشلل الادبية » (١٩) .

وفيما يخص النقد العربي (ونؤجل العمل الادبي والقارىء لان النقد عندنا ما يزال فرديا يقوم به فرد يتمتع بكل امتيازات الفردية !) ليس أمام الناقد العربي حتى يتمكن من استيعاب وتطوير والتأثير في التجربة الادبية العربية بكل ما لها من خصوصية قومية وعمومية انسانية ، وحتى يرقى الى مستوى الاعمال الادبية الابداعية او يقاربها ، ليس أمام الناقد العربي الا أن يطور رؤيته النقدية بمزيج من الاستبصارات ، ويأتي في مقدمتها :

١ ـ الظروف النقدية المتعددة ، اذ ليس هناك منحى واحدا اذا سلكه الناقد الى الآثار الادبية ، أفضى الى كل الحقائق الهامة حولها ، كما ذكرنا قبلا (٢٠) .

٢ ـ مواكبة التطورات المستجدة في الادب وتياراته الفنية .

٣ ـ الدراية الواسعة والعميقة بالادب القومي والانساني ، وبالمؤثرات التاريخية والاجتماعية والاقتصادية والسيكولوجية في هذه الآداب .

٤ ـ الالمام بالعلوم الاخرى التي لها مساس أو علاقة قريبة أو بعيدة بالنقد ، كالفلسفة واتجاهاتها ، والتاريخ ومناحي تفسيره وفهمه ، وعلم النفس وأساليبه ، والانثروبولوجيا والدلالات الرمزية فيها ... الخ (٢١) .

٥ ـ وقبل كل هذا وأهم منه جميعا ، لا بد من الموهبة والتذوق الفني العالي ، فالنقد فن وليس علما . وقد كان وما يزال يعتمد في المقام الاول ، على التذوق والرؤية الذاتية المدربة . ليس معنى هذا اننا ننكر على النقد ، الاستعانة بالعلوم والمعارف الانسانية الاخرى لاضاءة العمل الادبي . ولكننا نرى ان الناقد الذي يحاول أن يحيل منهجه التطبيقي (أو النظرية النقدية) الى منهج علمي صارم يقع في خطأ كبير ، وهو انه يفوّت على نفسه وعلى قرائه بلوغ الحيوية في الاثر الادبي.. ويعيق تذوقهم بدلا من أن يعينهم على توضيح التذوق وتركيزه وزيادته (٢٢) .

(١٨) ديفد ديتش ـ مناهج النقد الادبي . ت . محمد يوسف نجم ـ ص ٥٩٨ .

(١٩) نايتس ـ حاضر النقد الادبي ـ ص ٩٣ .

(٢٠) ديفد ديتش ـ المصدر نفسه ـ ص ٥٩٧ .

(٢١) مقالنا : (من مشكلات النقد الادبي المعاصر) المصدر نفسه ـ ص ٩

(٢٢) ديفد ديتش ـ المصدر نفسه ـ ص ٥٩٨ .

صدر حديثا

البطل الثوري
في الرواية العربية الحديثة

للناقد المصري : أحمد محمد عطية

منشورات وزارة الثقافة السورية

سعر النسخة ٦٠٠ ق.س.ل